صمت القطيع

منيرة الأزيمع - السعودية

كان يقود سيارته عائدا من عمله الإضافي وصوت (الراديو) يهدر بالأخبار لدرجة أنه تخيل أنه لم يبق سواه على قيد الحياة .. لم يكن المنزل بعيدا لكنه كان في منطقة خلاء .

شعر بآلام مثانته الممتلئة .. أوقف السيارة على جانب الطريق وحاول الترجل منها بهدوء . كان الظلام شديدا بحيث لم يكن يرى موطئ قدمه .. نظر للسماء كانت مجرد سقف مطلي بالسواد .. بقي معلقا بين السيارة والأرض .. حتى تناهى إلى سمعه صوت قطيع من الخراف .. عندها تجاسر على النزول .. أنصت بشيء من الإلفة .. لم يسمع لها صوت . ساد صمت غريب بينما بقي يسمع هدير قوائمها .

لقد كانت قطعانا هائلة .. تساءل كيف تساق هذه الأعداد الهائلة في هذا الليل .

تكوم غبار حرث قوائمها للأرض في حلقه . كان غبارا أزرق يشبه الدخان الذي ينطلق من عوادم السيارات .. يزيد من ظلمة هذا الليل وحلكته .. شعر بالاختناق .. حاول ازدراد ريقه ..كان طعم التراب مرا .. حنظليا .. صعب البلع .. كان يحتمي بعجلة السيارة .. وكان لا يزال يسمع صوت هدير أقدامها يضرب في الأرض وهي تقترب بهدوء وصمت شديدين .. حتى على كثرتها لم تكن تثغو حين يخيل إليه أن ما سمعه هو صوت ثغاء وأنه كان صوتا واحدا مكتوما مريرا يتبع ذلك همهمة وصوت تهشم لشيء ثم يسود الصمت من جديد .. كيف .. من الممكن أن تكون بلا رعاة .

لم يكن هناك غناء ولا نشيد، تساءل بمرارة : ألا يفعل الرعاة ذلك؟! .

لم يكن يرى من الطريق إلا بقدر مسافة أضواء المصابيح الأمامية ، وكانت السيارات المارقة بجنون تضيء المكان للحظة خاطفة ثم يعود الظلام سيد المكان .

بعد فترة خيل إليه أنه يسمع صوت الرعاة .. كان واضحا أنه صوت الرعاة لقد كانا اثنين فقط .. وكان يبدو أن أحدهما يعطي الأوامر والآخر يتلقاها، كان الرأي لواحد والآخر بلا صوت .

كان يبدو أنهما على خلاف لكن الأول كان قويا وحازما .

كانت أضواء السيارات القادمة من الاتجاه الآخر تعكس على باب السيارة الخلفي ظلا لعدد من الذئاب ، كانت تذهب وتجيء في مسافة متر واحد وتدور حول نفسها بعصبية .. أغلق باب سيارته ببطء محاولا أن يذهب إلى (شنطة) سيارته وعلى الباب رأى ظلال أعداد أخرى من الذئاب ، كان واضحا من حركتها القلقة . إنها تنتظر .

في هذه الأثناء عاد الرعاة للحديث المتقطع القليل المرتاب، في حين أن القطعان كانت تسير بهدوء واطمئنان غريبين . قال المتردد الذي يبدو تابعا للآخر :

- لماذا ؟

رد الأول بطريقة غريبة يبدو بها هازئا :

- لأن هذا هو ما يفعل الضعفاء ...

بعد صمت طويل كان يبدو أنه كان يستجمع شجاعته لطرحه :

- لكن لماذا علينا فعل ذلك ؟

قال بقسوة وقد بدا صبره ينفد :

- إما نحن وإما هي .. هه .. ماذا تختار ؟

عاد الصمت من جديد والقطعان بدت تقترب كثيرا من هنا رغم عواء أحد الذئاب .. في هذه الأثناء وهو يقف مترددا بين الباب الأمامي والخلفي لسيارته وقد شل الخوف قدرته على الحركة رأى أحد الرعاة، لقد كان طويلا ضخما وله أذنان طويلتان حادتان كتلك التي رأى على باب سيارته وبمساعدة أضواء السيارات رأى عينيه ورأى بهما نفس اللمعان .. لم يكن سواه ،أما بقية الرعاة فكانوا من ضمن القطيع ..

... القطعان تعرف أين تساق ولم تكن تثغو .. لم تكن تثغو كما يجب،لم يكن يثغو سوى واحد أو اثنين كان يسهل إسكاتها، ولم تحاول الهرب للجهة الأخرى .. الغريب لم تكن تثغو .. لم تكن تثغو ! .